تعريف بالكتاب

هذه هى آخر الروايات المسرحية التى كتبها الشاعر الايرلندى اوسكار وايلد (١٨٥٦ — ١٩٠٠) على مذهبه المعروف بمذهب الفن للفن أو مذهب الذوق والشعور بالجمال ، وهى على استيفائها لشروط مذهبه دليل على العلاقة الوثيقة بين الفن والحياة من جهة وبين الفن والحياة الاجتماعية من سائر الجهات ، فلا يخلو الفن من أثره الاجتماعى سواء قصد اليه المؤلف أو جرى فيه على مذهب الفن للفن على وتيرة اوسكار وايلد وزملائه فى مدرسته الأدبية . فان رواياته المسرحية تحسب جميعا من روايات النقد الاجتماعي أو روايات العادات والتقاليد التى تغلب عليها النظرة الفكاهية ، وقد أدار هذه الرواية المسرحية الأخيرة على موضوع التقاليد المتبدلة وما يصحبها من تكاليف الرياء الذى يوشك ان يطرد على مراسم مألوفة يعلنها الناس جهرة ويتواطئون على مخالفتها سرا ويحذرون أشد الحذر من ظهور التناقض المضحك بين مايعلنون ومايسرون ، فيبالغون فى الجد ويتقنون تمثيله المتفق عليه فى الحياة العامة كأنهم يعرضون حياتهم على مسارح التمثيل ، ومن هنا اسم الرواية الذى ينطوى على جناس لفظى ، معنوى ، يمثل هذه الحالة بحذافيرها . لأن كلمة « أرنست » بالانجليزية اسم من أسماء الرجال وهو فى الوقت نفسه صفة بمعنى الجد والوقار .

ابطال الرواية هم الجرنون مونكريف شاب من ظرفاء المدينة ، ولادى براكنل خالته ، وجويندولسن فيرفاكس بنتها ، وجاك ويرثنج عاشق الفتاة ، وسيسلى كاردو فتاة فى كفالة ويرثنج ، وليتشيا بريسم مربية سيسلى ، وكافون جاسويل من قساوسة الكنيسة .

ويتخذ المؤلف علاقات أبطاله وسيلة لابراز تقائض العرف المزدوج بين أبناء عصره ، وبخاصة فى الشئون العائلية ، وهى حالة عامة شغل بها المؤلفون الانجليز أبناء النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، كل على طريقته واسلوبه ومقصده ، كما يرى من المصنفات الخمسة التى ضمتها هذه المجموعة ، فانها تصور لنا جميعا حالة الانتقال بين عصرين متناقضين يروج فيهما مذهب جون ستيوارت مل عن الحرية المهددة ، وقصص شارلز ديكنز عن الطبقات المزعزعة والمثل العليا المتنازعة بين تحصيل الثروة والمحافظة على السمت والشارة ، ويروج فيها عمر الخيام بفلسفة الرواقية التى يلقى بها كسوة الدرويش فى النار لينعم بجمال الربيع ومتعة الحياة ، ويختلس فيها النظر الى أقاصيص چى موپاسان لأنها تصور الطبيعة البشرية فى تقائصها ونقائضها ، فلا تنبذ دفعة واحدة ولا تنكشف علانية لكل قارىء فى عصر التحول والانتقال .

وطريقة أوسكار وايلد فى نقد هذه الحالة هى التفكه بضحكاتها الكثيرة دون أن يخرج بها من دور الفكاهة الى دور القجيعة ، فكل بطل أو بطلة من شخوص قصته يأخذ بنصيب من السخرية متعرضا لها ومعرضا معه سائر المشتركين معه فى هذه الحياة المزدوجة .

فالشاب الجرنون يختلق له صديقا مريضا يحتاج الى رعايته من حين الى حين ليعتذر بالسفر اليه فى الريف كلما أراد الهرب من ولائم خالته التى تبتدىء وتنتهى على سنة التقاليد المملة والجد المصطنع ، ويرثنج يختلق له أخا لا وجود له يسمى (أرنست) ويزعم أنه مقيم فى لندن وأنه لا يرتضى مسلكه فى المعيشة فلا يدعوه الى مسكن الفتاة ومربيتها ، ولكنه مضطر الى لقائه حينا بعد حين للتفاهم على الشئون العائلية ، وقد كان ويرثنج يتسمى باسم (أرنست) كلما ذهب الى لندن ويركب رأسه فى لهوه ومجونه آمنا أن تصل سيرته الى مسكن الفتاة ومربيتها بالريف على مقربة من العاصمة ، فان سمع أحد من الريف بعربدة أرنست فقد يخطر لهم أنه ذلك الأخ المنبوذ ويعذرونه لاجتناب دعوته الى المسكن المصون .

وتلتقى الفتاة جويثولسن بأرنست المزعوم فتحبه لأنها نشأت على تربيتها التقليدية تتطلع الى زوج يتسم بسمات الجد والوقار ، فكان هذا الاسم من أسباب حبها للفتى واستجابتها لتحياته ومناجاة غرامه ، وكادت أمها تقر الخطبة بينهما لولا أنها علمت أن ويرثنج يجهل نسبه ولا يدرى من امر أسرته الا أنه وجد رضيعا فى محطة فكتوريا فالتقط منها .

وتتعقد المواقف تباعا كما يحدث فى احوال المعيشة المزدوجة والتسمية المكذوبة ، فيذهب الجرنون الى بيت ويرثنج حيث تقيم الفتاة سيسلى وهو يتسمى باسم أرنست ذلك الأخ الذى ليس له وجود ، وتحبه الفتاة لأنها هى أيضا قد نشأت على حب الجد والوقار وتعودت أن ترتفع عن خلائق الهزل والمجون التى أخذت تبدر من هنا وهناك بين ناشئة العصر وآخذ العصر يقابلها بالأنفة والاحتراس ، وينتهى الأمر بالفتيين الى الاحتيال على حل المشكلة باعادة كتابة الاسمين ، واختيار كل منهما لاسم «أرنست» بدلا من اسمه المكتوب فى دفتر المواليد ، ويوشك أن يتم ذلك لولا اشتغال القس فى الموعد المحدود .

ولا تلبث الفتاتان أن تعلما حقيقة السر حين تتقابلان على اعتقاد منهما أنهما تتزاحمان على حب فتى واحد ، ولكنهما بعد العلم بالحقيقة تغتفران زلة الفتيين المحبوبين وتهونان الخطب على نفسيهما بأن المراسم الحسنة فى شئون الزواج أولى بالاعتبار من الحقائق والأسماء .

وتعترض اللادى براكنل على زواج الجرنون من « سيسلى » مخافة أن تكون الفتاة ـ كالوصى عليها ـ لقيطة مجهولة النسب ، وتسأل عنها فتعلم انها وريثة جد واسع الثراء ترك لها نصيبا من ثروته مائة وثلاثين الف جنيه ، فتقبل الخطبة ثم لا تلبث أن تعلم أن وصية الميراث تشترط أن يتم الزواج بموافقة الوصى ـ ويرثنج ـ وتمد سن الرشد الى الخامسة والثلاثين ، اذ يحق للفتاة أن تتزوج كما تشاء .

ويغتنم «ويرثنج» الفرصة فيأبى الموافقة ثم يتشبث بتنفيذ الوصية في مسألة السن ، الا اذا قبلت اللادي زواجه من بنتها جوينـدولين وعدلت عن رفضه بعد اصرارها عليه ، ويتعلل بمسلك صاحبه الملجن لرفض الموافقة على الزواج .

ثم يزول الاشكال كله حين يتجلى لهم تاريخ « لبتشيا بويسم » مربية سيسلى ، فتذكر اللادى براكنل انها هى المربية التى كانت تعمل في قصر الأسرة ثم خرجت ذات يوم بابن شقيقتها وتركته فى حجرة المحطة ، واذا باسمه المسجل فى دفتر المواليد « أرنست » ذلك الاسم المحبوب ، لأنه أكبر أبناء أبيه ، وقد كان اسم أبيه الأول « أرنست » كما ظهر من مراجعة السجلات العسكرية ، وفيها اسم أبيه الكامل منـذ كان ضابطا صغيرا الى أن اعتزل الخدمة بمرتبة القيادة .

فالفتيان اذن اخوان : أرنست الأخ الأكبر والجرنون الأخ الأصغر ، وان كان الأخ الأصغر لم يعرف لأخيـه قط حـق الاحترام الواجب فى صحبتهما التى قضياها زميلين « بغير تكليف » .

* * *

هذه التوفيقات والمفارقات تعاب على الروايات الجدية ولا يمنعها النقاد من روايات الفكاهة والسخرية الاجتماعية ، لأن ازدواج المواقف وسـيلتها اللازمة لابراز المواقف « ذات الوجهين » وكشـف النقابات عن النفاق الذى يصطنعه صاحبه فى كل صورة من صورتيه .

ولولا هذا « الازدواج » المختلق لما تأتى للمؤلف أن يجعـل للوقائع الغالبة حكما يقطى على التعلل بالواجبات والفضائل والموانع المثالية ويبين للناس مقدار ثباتها أمام دوافع العاطفة وحب المال ومطاوعة السجية من وحى الطبيعة ، دون وحى العرف والتقليد .

عباس محمود العقـــاد